# نصف كوب من دموع المسيح

قصة بقلم صلاح عيسى

## ( ١ ) « بنت اسمها حكمت مسعود الصعيدي »

عندما فتحت عيني في الصباح ، قررت ان اقول لصديقي « حسين » رأيي الحقيقي في سلوكه ، بيد انني عدلت عن فراري تحت الدش . رأيت من الافضل ان يكبح الانسان جماح افكاره المتطرفة . وأنا أشرب كوب اللبن ، انتهيت الى تشخيص مبدئي لحالة « حكمت مسعود الصعيدي » . قررت أن أكتبه وأضمه الى ملفها بمجرد وصولي الى المستشفى ، وانتهيت في تلك اللحظة الى الاقتناع بان رجلا مثل «غونار يارينغ» ، هو شخص سعيد بلا شك ، لانه يتجول في العالم ، واذن فانه لا يعرف الملل . وأنا أحلق ذقني فكرت في ان جارتي تتبع المذهب الحنفي ، بدليل انهـــا استحمت تنزيل جنابتها في الصباح وليس في الفجر . وقلت : ربمـــا كانت مالكية ايضا . أظن انهم أيضا يبيحون هذا . قطع وصول حسيـــن المناقشة بيني وبين نفسي . اضطررت للابتسام في وجهه . تركت يـدي التي امتدت للبحث عن كتاب « الفقه على المذاهب الاربعة » معلقة فـــي الهواء . قلت : في الظهر سأبحث في الكتاب عن رأي الحنابلة في ازالة الجنابة . تاهت كلمات الترحيب على لساني ، ذلك ان الشيخ « رفعت » كان يتربع في الثلث الاخير من رأسي ويقرأ « اينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » . هتفت : الله .. أحسنتم يا مولانا . قال حسين ان زوجته سبقتنا الى السيارة ، وان علينا ان نلحق بهـا فورا . تصاعد نفير السيارة واشيا بضيق صدر متعجرف . وقلت ان صدرهـــا صغير كالنبتة .

استقبلتني بابتسامة تليفزيونية مدربة . فقلت ان ابتسامتها تتناسب مع شعرها المستعار . كانت « بلوند » في ذلك الصباح الشتـــوي وهذا يعني أننا في يوم « الاثنين » ـ وشت البلوزة النايلون بهـا ، ففلت ان الكومبين الذي تلبسه أسود . أصبحت أعرف الايام بـــلون شعرها ، فهي شقراء في يومي السبت والاثنين . وسمراء فيومـــي الاحد والثلاثاء . اما بقية ايام الاسبوع ، فشعرها كستنائي غالبـا . كنت أفكر في ان احتفال رأس السنة هذا العام ، ينبغي ان يكون مهولا كما يجب لسنة تودع عقدا كاملا من القرن . لذلك يجب ان تكـــون كرنفالا هائلا . ولماذا لا تكون حفلة تنكرية ؟ فكر في القناع الذي تلبسه. أمامك بضعة ايام ، لم نتحـــدث الا بعد ان قذفنا بها امام مبنـى التليفزيون . تنفست لحظتها براحة . فتحت صدري . شممت نسمات النهر النديـــة .

انتقلت الى المقعد الامامي بجواره . اهتزت عروسة فوقازيـــة معلقة على زجاج السيارة امامنا . ملابسها زاهية الاخضرار . ملامحهـا دقيقة وعيناها جميلتان . داعبت وجنتيها . ضحكت . قلت : لو كانت امرأة حقا لتدلهت بها حبا . خيل اليّ انها تبتسم لي . فكرت فـــي ان الحكيمة التي تعمل معنا في القسم تبدو مستجيبة ، ولكن لانهـــا تحمل الاسم نفسه الذي تحمله زوجة صديقي ، فانني أتردد كثيرا في مغازلتها . وأمس انحنت « ضحى » ـ وهذا هو اسم زوجة حسيـــن ايضا ـ تعرض عليّ اوراقا ، تجاور ساعدانا ، سرى اليّ عبيرها داعيا وجاذبا . وللحظة كدت احتضن خصرها اليّ . ولكن اسمها ـ ضحى ـ طفا فجأة على سطح الوعي . باخت رغبتي . ابطأت السيارة وهـــي تدخل زحام ميدان التحرير . تحدث « حسين » عن برنامج زوجته . قال انها ستسجل حلقة جديدة منه اليوم . أردف :

ـ من الصعب ان تكون زوجـــا لامرأة في شهرة « ضحى » وانت غير مشهور .

ضحكت دون ان افتح شفتي . غمزت للعروس القوقازية . نظرت اليّ بعينين مبتسمتين .

قلت :

ـ ولكنك تاجر ناجح ومعروف في السوق .

قال بلهجة محايدة :

ـ يشيرون اليها دائما كلما شوهدنا معا . وفي الاسبوع الماضي عرض عليها مخرج سينمائي ان تعمل معه .

أوقفتنا اشارة مرور . قذف البائع بصحف الصباح . ألقى نظرة سريعة على المانشيت الرئيسي للجريدة . قال :

ـ ستصبح السويس أكوام حجارة ، بعد قليل .

« سبحت بقوة ، كان البحر هادئا . عدت مبللا الى «الكابانون» ، طلبت زجاجة كوكا كولا شربتها وألقيت بها فارغة على الارض » .

أردف :

ـ خسارة .

لهجته نحاسية . شارع القصر العيني هادىء . اما الفيلا فـــان جبل عتاقة كان يحتضنها . قلت اننا لا نتكلم نفس اللغة ، فمـــن يترجم ..

ـ أظن انهم عوضوك بما فيه الكفاية .

قال ساخرا :

ـ ملاليم وشرفك ، وفي التجارة ليس المهم رأس المال ، ولكن : السوق والاسم التجاري وحجم التعامل .

ها هي الهموم تطل برأسها من جديد . واحيانا يبدو كأن الدنيا قد خلقت منه مسخا يدعو للاشمئزاز . واين ذهبت فكرة الصبـــاح قبل الدش ؟ لولا صداقة الطفولة والصبا لعانينا كثيرا من سخـــافة

ما يقول . ويوما وضع سيارته تحت تصرفنا وتعرض لخطر حقيقي .
قلت :
ـ ولكن الوطن في خطر ، وكل شيء يهون ..
ضحك مقهقها . قال :
ـ لن أكرر خلافي الدائم معك .. عيبك انك تصدق كلام الجرائد. وأنا أتحدى أي ابن كلب من الذين يكتبون في الصحافه ، ان يضحي حتى بمجرد موعد مع مومس بلديه من اجل الوطن الذي يكتبون عنه ليل نهار .
تصاعد احتجاجي . ضاع في موجة ضحك صاخب أنهى به كلامه . قلت معاتبا :
ـ كثيرون ضحوا ، وكثيرون سيضحون ، والحقيقه انك لم تهتم ابدا بأشياء من هذه .
نفخ ضائقا . قال :
ـ ماذا اخذت من الحرب ؟ دمر فرع السويس وفرع بور سعيد ، وخسرت الزبائن والاسم التجاري نظير ملاليم .

لم أعن بالرد عليه . قلت ان شيئا ما يجذبني اليه . فما هو ؟ فكرت في ان أبحث ذلك مع خطيبي « كوثر » في المساء . ولكني لم أقرر ذلك نهائيا ، اذ لا بد ان سؤالا او اكثر سيقفزان الى ذهنها . ترى هل فكرت يوما ان تلتقي ببنت مثلها ؟ وفي أي منطقة بالضبط من كيانها المتفجر بالحياة تكمن فتنتها وجاذبيتها ؟ في الابتسام أم في رنوة العين ، لعلها في التنفس الدقيق . قال :
هل زعلت ؟ حقك عليّ . اعلم انك ضحيت بالكثير ، ولكن لعلك توافقني على ان خسارة المال شيء مزعج .
وافقته . اردت ان انخلص من الحاحه . أعود لاستبطان فكرة ما كانت تشغلني . صمت طويلا . سألني فجأة عن كوثر . قلت :
ـ ليست على ما يرام .. تشاجرنا امس شجارا مفزعا ..
استمع الى التفاصيل باسماء . توقفت العروسة الفوقازية عن الاهتزاز . وأنا اروي تذكرت انها قالت اشياء سخيفة . حذفتها من القصة . ضحك .
ـ النساء متشاكل معقدة ، كوثر لا تفترق كثيرا عن زوجتي ، فهما ابنتا خالة ، وأرى انكما في حاجة الى تغيير الجو .
ـ يعني ؟
ـ أظن انكما تشكوان الملل .. اسمع .. لماذا لا تسافر ؟
ـ الى أين ؟
ـ الى أي مكان .. أو حتى لا تسافر ، ولكن لا بد ان توهم كوثر بذلك ..
ـ لا أفهم ..
انتهز فرصة الاشارة ليشعل سيجارة . قال :
ـ أنتما في حاجة الى موقف تراجيدي .. تصور لو قلت لكوثر مثلا انك مريض بالسرطان وان الطبيب أكد انك لن تعيش اكثر من ثلاثة شهور .. سندب الحرارة في عواطفكما الباردة وتستعيدان ايام الحب السعيدة .. او تزعم انك ستسافر الى أي مكان وتدعوها لوداعك في المحطة ..
ضحكت ..
ـ ولكن هذه فكرة سينمائية مبتذلة .
ـ لو سمعتك « ضحى » لاشبعتك سبا . هذه فكرة حلقة الليلة في برنامجها « دروس في السعادة الزوجية » .
ابتسمت . قلت ان الله سلم .. وعليه في المستقبل ان ينبهني الى ذلك حفظا للسلام العام . كاد وهو مستغرق في الحديث ان يمر بالمستشفى دون ان يتوقف . ودعته . دخلت .

*

روائح الفقر تهب . نساء متهدلات أكلهن الزمن . ذهب الجوع بنضارة العذرية . أطفال مهزولون هد المرض نشاطهم . جلس بعضهم يلهث . رائحه الفورمالين اللعينة . موظف الاستقبال يشرف نذاكرة الحمراء . نمورجيه تمسح البلاط في نشاط . حيائي واحد وآخر . من بعيد بدت حجرة الاطباء خالية . مريضة من عنبر ٣ تصحب طفلتها الى دورة المياه . تمنت لي خيرا . ابتسمت . لو كانت أمنياتها تتحقق أليس من الافضل ان تحتفظ بها لنفسها ؟ كانت حجرة مكتبي نظيفة ، بدليل ان المقعد كان فوق المكتب . ارتبكت النمورجيه . قالت :
ـ لا مؤاخذة يا أستاذ .
ببسمة أزالت ارتباكها :
ـ لا عليك ، اطلبي لي القهوة لو سمحت .

بدأت تنظف المكان على عجل . تعثرت في سجادة الارض ، كادت تقع . فتحت باب الشرفه . وقفت أتأمل ما حولي في انتظار أن تنتهي من عملها . اطلت من مكتبي على زحام المنتظرات في « الاستقبال » . أطفال وأمهات ولا أكثر . بعضهم بملابس المدرسة . مرايل من النيل الرخيص مبلدة بالعرق والتراب وآثار الحلويات الرخيصه في جيوبها. نفط من الحبر . الامهات : ملاءات سوداء مليئة بالرتوق . وجوه ساهمة مثقلة بما تحمل من هموم فأين نظرة الصفاء في جمال العيون ؟ يسحب الكدر نفسه على بياضها فيصيبه لون كالرماد . ذباب . اصوات عصبية . صوت انفطار اللعين . اصبحنا من متفرجي الشرفات . كنا يوما سباحي بحر العرق المنسع . وكم حملت الجيوب . طلقات . فنبله « ميلز » تحملها الكف في الجيب ، والاصابع تمسك مسمار الامان . عدت الى المكتب . الاوراق ملطاة باهمال هنا وهناك . تعال نسبح في بحر الكلمات بلا معنى ، نخترق بنشوة مزيفه بين احضان كوثر . نثرثر بين الحين والآخر بكلام لا معنى له ، ما أجدر أن تصبح يوما أنشط التجار . بالخط الكوفي نكتب على باب المحل : « رأفت البشلاوي » مناضل سابق . ( الادلة رصاصة في الذراع اليمنى ، ندبة فوق الحاجب . وطعنة سونكي في الفخذ الايسر ) . مستعد لتوريد جميع الشعارات لزوم الاحتفالات والمواكب والمقالات وشعر المناسبات الركيك . مؤلف كتاب « الطلقات ومقاوم الآفات بأحسن الكلمات » .

تناولت ملفا كان يرقد منزويا في ركن المكتب . على غلافه « سري جدا . المعلومات الواردة به تستخدم لاغراض مهنية ولا يحق لاي جهة الاطلاع عليها او استخدامها » . ابتسمت ساخرا . كان عنوانه « بحث اجتماعي لحالة المريضة حكمت مسعود الصعيدي » . قرأت تشخيص الطبيب لحالتها . « روماتيزم بالقلب . ضيق بصمام الميترال . درجة الاصابة ـ ٤ » . رتبت الاوراق القليلة في الملف . تبدو كالزهرة ، فكيف يكمن الموت في قلب الزهور كالخديعة النكراء ؟ يومها كان صبح كهذا الصبح . جلسة كهذه الجلسة . وترتيب أوراق كالذي أفعله . أول ما رأيته منها أصابعها الرفيفة . امام الكتلة الخشبية التي تحمل اسمي في مقدمة المكتب . خيل اليّ ان بصري يخدعني . اذ كيف يأتى ان تثبت هذه الاصابع في لوح الزجاج الذي يغطي سطحه ؟ رفعت رأسي في فراغ الغرفه البارد . رأيتها . أطول من المكتب قليلا . شعرها اشقر يشع شمسا . عيناها خضراوان ، بلون الحلم . بشرتها رائقة . نقية ملامحها دقيقة .. دقيقة .. قالت بدفعة :
ـ انا حكمت مسعود الصعيدي .

كدت أضحك . تقدم نفسها بوقار لا يتناسب مع سنها الصغيرة . ثماني سنوات بالكاد . ملابسها فقيرة . بلوزة مشجرة . وجونله صوفية قديمة . شعرها مضفر بشرائط بلون البلوزة .
قلت :
ـ تشرفنا يا ست حكمت . لكن كيف دخلت هنا ؟
قالت بصوت خفيض وهي تحيط فمها براحة كفها :
ـ أقول لك بشرط ألا تقول لاحد .
تملكتني حالة نكوص طفلية . قلت وأنا أخفض صوتي مثلها :

ـ لن اقول لاحد .. هيه ، كيف دخلت ؟
قالت بضحكة شيطان وليد :
ـ ضحكت على خالة منيرة .. ودخلت ..
نظرت الى مقعد بجوارها كأنما تستأذنني لتجلس . قلت :
ـ احكي لي .
نظرت الى مقعد بجوارها كأنما تستأذنني لتجلس . قلت :
ـ اقعدي ...
ـ متشكرة .. أصلي تعبانة شوية ..
أتاح جلوسها فرصة لتأملها عن قرب . تبدو جميلة كزهرة غسلها ندى الفجر .
قلت استحثها :
ـ هه .. كيف ضحكت على التمورجية ؟
ضحكت ضحكة طفلة آسرة :
ـ قلت لها الدكتورة « وداد » تريدك . جرت مسرعة . ففتحت الباب ودخلت .
ابتسمت كأنها تشهدني على ذكائها . قلت :
ـ أنت شاطرة .
ـ متشكرة ..
تبدو شديدة الادب . قلت :
ـ جئت وحدك ؟!
ـ لم يرض أبي بالمجيء معي . شغل . جئت مع جارتنا . رفض سعيد افندي ان يعطينا التذكرة . قال : اننا تأخرنا ، ركبنا الاتوبيس وحياة ربنا . ومع ذلك تأخرنا .
تبدو عارفة لكل شيء . اسم التمورجية ، والدكتورة وداد . وأبله « ضحى » الحكيمة ايضا . وسعيد افندي كاتب الاستقبال ..
ـ انت عارفة المستشفى جيدا .
ـ أصلي عيانة من زمان . جئت هنا كثيرا وأنا صغيرة . ثم انقطعت .. عايزة اكشف الله يخليك ..
لهثت .. توقفت عن الكلام برهة . طلبت لها شايا . ترددت قليلا ثم شربته . كان الجو باردا . الحجرة رطبة كأنها ثلاجة فاسدة الموتور . ثارت « منيرة » . أرغت . أزبدت . جرت هي في الحجرة . احتمت بالمقعد الذي كنت أجلس عليه . قالت منيرة :
ـ هذه قلة ادب ، لا مؤاخذة يا استاذ . لقد ضحكت عليّ هذه الشيطانة .
قاطعتها :
ـ دعيها يا ست منيرة ، اذا ما جاءت بعد ذلك ادخليها فورا .
نظرت منيرة بعجب ، قالت :
ـ لقد ارسلتني للدكتورة وداد ، وأرسلت الست ضحى الحكيمة الى عنبر ٣ ثم دخلت الحجرة .
بحسم
ـ انتهينا .. أين الدكتورة « وداد » ؟
ـ في مرور بعنبر ٣ .
ـ بمجرد عودتها اخطريني ..
مضت التمورجية . عادت هي الى جلستها لاهثة . في عينيها الجميلتين نظرة أسف ، ربما لانها لم ترو لي ما فعلته بالحكيمة .
قالت بعد لحظة :
ـ ألن تكشف عليّ انت .. هل زعلت مني ؟
ربت على كتفيها :
ـ لا .. لم أزعل .. ولكنني لست طبيبا ... أنا اخصائي اجتماعي ..
بحيرة :
ـ مشرف اجتماعي يعني ، كأبله محاسن .. هل تعرفها ؟ في الضمان الاجتماعي بالساحل .
وبصوت حزين :
ـ رحت اليها كثيرا ، طردني الفراش ، قلت لها يا ابله نحن والله العظيم غلابة ، وأبوي عجوز ، وخالي شغل ، وأختي « ليزا » عيانة بعقلها . كتبت الكلام ، وقالت عودي بعد شهر ، ولكن لم تصرف لنا شيئا .. مع انهم صرفوا لام محمود جارتنا اثنين جنيه مرة واحدة ..

★★★

استقبلني الطبيبة بنظرة متسائلة . كانت تفحص عددا من رسوم القلب بعناية وتكتب قراءتها . شرحت لها الامر . دعتها الى منصة الفحص ، ترددت قليلا قبل ان تستجيب لامر الطبيبة بتعرية صدرها . ابتسمت . ادرت لها ظهري . وقفت على ميزان صغير بركن الغرفة أزن نفسي . استغرقت الطبيبة وقتا طويلا في الفحص . بعد الانتهاء منه ، قالت بالانكليزية :
ـ حالة نموذجية لو ظهر رسم القلب كما أتوقع. ضحى . ضحى .
ـ جاءت الحكيمة تتمايل ، دست نظارتها بين عينيّ . قالت الطبيبة :
ـ أضبطي جهاز رسم القلب . سأجري لها أشعة نظرية ..
دعتها الى جهاز الاشعة . كان بصري المنهك يحاذر ان يصطدم بأرداف ضحى ، كانت تتحرك بحيث تصطاد ارداقها بصري ، وهي منهمكة في اجراء رسم القلب . تابعت ريشة الجهاز الصغير وهو يرسم الذبذبات ، قلت ان ذلك كله يعني اشياء ، قد يكون بعضها مرعبا ، كما يعني الرسم البياني لازدياد وزني . فهل هذا دليل على الراحة ام التبلد ؟ رؤية صورة قديمة لنفسي تعني اشياء كثيرة . ضحكت كوثر طويلا عندما رأتها . قالت كنت رفيعا كبوصة ، وحليقا ، فما اجمل شاربك الدوغلاسي ، وقلقا كما ينبغي لانسان ضائع لا يجد من تلمه . اما الآن فها أنت تبدو مرتاحا . واذا ما تزوجنا ، ازداد وزنك ، سيكون هذا شهادة لي بأنني زوجة ناجحة . فما معنى هذا كله ؟ تعمل الطبيبة في انهماك . وضحى تسلط أردافها الفاتنة ، فأين قوات الدفاع التي تستطيع ان تصد هجوما يوجهه عقل اليكتروني، كذلك العقل الذي وجه غارات حلوان ووادي حوف ؟
في الاجتماع الاسبوعي للقسم ، قالت الدكتورة وداد :
ـ حوّل الى الاستاذ رأفت حالة جديدة تدعى .. تدعى حكمت مسعود الصعيدي ، وقد أجريت لها الفحوص الضرورية . وتكشف النتائج عن انها حالة صالحة جدا لتضم الى عينة البحث الذي نجريه .
تراشقت هي وعدد من الاطباء واستاذ القسم بالعديد من المصطلحات الطبية . كنت قد حفظت المصطلحات . أتقنت ترديدها دون ان افهم معناها بالتحديد . لكن ذلك لا يبدو مهما . كما لا تبدو حكمت نفسها مهمة بالنسبة لهؤلاء جميعا . يتحدثون عنها كما يتحدثون عن فئران التجارب ، وكلابها . ولكن من يعاني حقا ما تعانيه ، من يلهث كما تلهث ، يصاب بالدوار . تتقطع أنفاسه . تضيق . يصفر وجهه . تهرب الدماء منه . تمتلىء بالاورام كل مساحة من جسده . الاجتماعات تبدو جميلة : رجال منمقون يؤدون ادوارا في مسرحية بلا معنى ، يكررون ألفاظا يحفظونها عن ظهر قلب . فلماذا لا يضعون أقنعة فوق وجوههم ؟ متى تخلعين هذا المعطف الملائكي الابيض يا دكتورة « وداد » ؟ مشوق انا لدفء اللحم الذي يغطيه معطفك الثلجي هذا . بدت الفكرة يومها سوداوية ومتشائمة ، كفكرة محل التجارة التي تعابث صحوك وأرقك ، فمتى يذهب هذا الليل الساجي ويأتينا الضحى ؟ لا ينقص أحدهم الاهتمام . حتى وداد نفسها ، يبدو كل شيء عندها وقودا لابحاثها . لا ألوان ولا أصباغ . في أحيان متعددة تنسى نهائيا انها أنثى ، رغم جمالها الذي يبدو صارخا . ولتقر بأن هذا جميل وعظيم . لكن شيئا ينقصه حتما . فما هو ؟ آه . ها قد تذكرنا القط فجأة ينط .
رفعت رأسي عن الملف . أغلقته . كانت قد وصلت الى منتصف الحجرة ، قالت :

ـ صباح الخير يا أستاذ رافت . سأشرب قهوتي عندك . احتل الاستاذ واطباء الامتياز العيادة والمكتب ، ولديّ عمل هام .

سحبت مقعدا . جلست خلف منضدة متوسطة الطول . تبعتها « ضحى » بعدد من الملفات . جلست على مقعد امامها . تحولت المنضدة الى سوق . أشعات . أوراق . رسم قلب . ملفات . مقص . زجاجة صمغ . دباسة . انهمكنا في العمل . اصطادت عينا ضحى عيني اكثر من مرة . برقت منهما نظرات عرفان وتشجيع . أصبحنا خبيرين فيما يبدو بلغة العيون . النظرة داعية فما الذي يصدنا ؟ أهو الاشمئزاز من كل شيء ؟ تخفي وداد جسدها بمعطفها الابيض ونظارتها الطبية . شعرها مكوم فوق رأسها ، قلت ان البحث عن الانثى في هذا الكيان الوقور المتبتل في معبد العلم يحتاج الى مجهود . ها هي العين تصطاد ما لم يستره المعطف من ساقيها . يشي الجزء الاخير من الساق بأن الفخذين ممتلئتان ودسمتان ، القاعدة في رأسي تقول اذا كانت المنطقة من الركبة الى القدم كالهرم المقلوب فهذا يعني ان الافخاذ دسمة ولينة . الجلد أبيض ولامع . فكيف تلتف هذه الفتنة المتفجرة بهذا الاهتمام الوقور بالاشياء ؟ ها أنت متلبس بفكرة اقطاعية رجعية تنتمي الى العصر الوسيط . فهل هي كذلك حقا ؟ ام انك متشوق للبحث عن الانسان داخل هذا الكيان الذي لا يرى البشر سوى موضوع لبحث دون ان يخفق قلبه للعذاب الذي يقاسونه . لو قدر لك يوما ان تعريها من كل هذه الاقنعة ، فماذا أنت فاعل ؟ أقسم بمن شاءت مقاديره ان يحيل ثوريتي الى المعاش قبل الاوان لاضربنها بالسوط قبل المضاجعة. هي وحدها التي تعرف حقيقة المرض وخطورته . ارتفع اهتمامها بحكمت الى الذروة ، بيد انه كان في الحدود التي ترسمها لكل شيء .

ـ انها حالة نموذجية كما قلت لك ، تتفجر بدلالات خطيرة وهامة. واذا صح ما افترضه فانها تصلح موضوعها لمقالي السادس للمجلة الطبية الاميركية .

آه ، أين السوط يا أولاد الكلب ؟! وحياة قمع السكر المقلوب الذي ينم عن جمال الفخذين ، لاضربنك بالسوط وأعلمنك العذاب الحقيقي ، وليكن ذلك آخر اعمالي الثورية .

رفعت رأسها . لوحت بملف في يدها ، قالت :

ـ يا أستاذ رافت . فتحنا ملفا طبيا لحكمت الصعيدي . وقد تضخم كما ترى ، فهل تضخم الملف الاجتماعي ايضا ؟

آه « الملف » ، سرعان ما تحولت الى أوراق . فكيف تتحول نظرة العين الساجية الى ورقة ؟ والبسمة والغمازتان الرقيقتان فوق الوجنتين ؟ أدركوني بأدوية « الضغط » و « المرارة » . قلت :

ـ أنت نشطة جدا يا دكتورة وهذا طبيعي ، اما بالنسبة لي فقد اجريت مقابلة مع الفتاة نفسها وحصلت على بعض المعلومات القليلة ، ولكن المفيدة في الوقت نفسه .

أومأت برأسها . قالت :

ـ هذا جميل .. وبالطبع ستزور أسرتها في المنزل ..

ـ نعم .. وضعتها في خط سيري هذا الشهر ، بعد حوالي عشرة ايام .

ناولتني الحكيمة باشارة منها بعض صور الاشعة . قالت :

ـ هذه صور الاشعة الثابتة . وتقارير عن آخر سرعة ترسيب للدم اجريته لها ، وهو مرتفع جدا .

تتكلم بحماس . تنسى انني لست طبيبا . اخذت أتأمل صورة الاشعة وقد رفعتها امام عيني . ها هو قلب حكمت . مجرد صورة لا تتكلم معي لان عينيّ لا تحسنان لغة الكلام على اللدائن البلاستيكية الشفافة . أين الضحكات والبسمات التي تملأه ؟ اين الخوف والجوع وصراخ « ليزا » ، أختها الذاهبة العقل ؟ وأين اقدام عم مسعود الصعيدي المتشققة من الحفاء طول العمر ؟ وأنا أحرك وجهي لاتظاهر برؤية الصورة ، نفذت نظرتي عبر مسطحها الشفاف ، في منطقة مغبرة ، رمادية ، لتلتقي بعيني « ضحى » ، آه هذا هو الكلام واضحا فيها وبلا تردد . هذه النظرة ـ كما يقول قاموس النظرات الذي أعرفه ـ تعني دعوة للرقاد فوقها . قلت أغيثوني ، ها هو تحريض علني على الفسق ، وبيننا قلب مريض تفيض بسماته ، ومحراب العلم امامنا يرتدي معطفا ثلجيا . فليتعظ اولاد الكلب ، ولتضعي في عينيك الفتاكتين حصوة ملح ، فانني حزين وملول ، مقتول وقاتلي علامات استفهام لا تنتهي .

قالت الدكتورة بلهجة نحاسية :

ـ القلب متضخم جدا .. هل تعطيني فكرة عن ظروفها الاجتماعية؟

ناولتها الصورة . قلت :

ـ التفاصيل التي عندي قليلة جدا . تعيش مع أخت كبرى مريضة عقليا فيما يبدو . الام متوفاة . الاب شبه عاطل ، ويعمل اعمالا متفرقة. ويسكنون « عزبة الورد » ..

كانت تكتب . قالت :

ـ عزبة الورد ؟ اسم جميل .

أجل عزبة الورد . والا لما بدت هكذا مزهرة ونقية ، طهورا كحبات الندى المؤتلق في ضوء القمر ..

دق جرس التليفون . كانت « كوثر » . قالت بلهجة تقلد فيها ممثلة سينمائية :

ـ أنت غاضب مني ؟!

توشحنا بالصبر .. اللهم وطوّلك يا روح .

ـ لا ابدا .. تعرفين انني لا اقدر على اغضابك .

لاحظتا انني خفضت صوتي ، تظاهرتا بالانهماك فيما بين ايديهما. ألقت « ضحى » نظرة أربكتني . أعطيتهما ظهري بحركة غير ملحوظة . قالت هي :

ـ ولكنك كنت المخطىء ..

طرأت الفكرة على رأسي فجأة . قلت بلهجة عاطفية :

ـ ليس هذا هو المهم الآن ، لا أريد أن أسافر وبيننا غضب .

قالت :

ـ تسافر ؟ الى اين ؟

ـ واحد قريبي مات في الجبهة . سأحضر تشييع الجنازة . وسأبقى هناك اسبوعين تقريبا .

صاحت على الطرف الآخر :

ـ غير معقول ، هل أحرم من رؤيتك اسبوعين كاملين ؟

أبهجني كلامها ، هل آن ان نقر ان برنامج « دروس في السعادة الزوجية » هو انجح البرامج على الاطلاق ؟ هل تسري الحرارة في أيامنا الرطبة ؟ لندع الله ألا ترى الحلقة التي أعدتها بنت خالتها ، والا افتضحنا وانقلب علينا قصدنا . قلت :

ـ تعلمين انني لا أطيق البعد عنك ، ولكنها الظروف .

قالت في استسلام اليائس :

ـ ومتى تسافر ؟

ـ الليلة قطار الثامنة والنصف .

قالت فجأة :

هذا يعني انك لن تحضر احتفال رأس السنة .

ـ للاسف !

ـ هل تأتي لتودعني قبل السفر ؟

طاقتي على التمثيل تنفد ، فاللهم أمددنا بعونك . قلت :

ـ لن استطيع ، ولكن ساكون في المحطة في الساعة السابعة والنصف . هل تأتين ؟

قالت :

ـ نعم .. سآتي ..

وضعت السماعة . في نهاية المحادثة ، كان صوتها متهدجا كالموشك على البكاء . فهل هو جزء من التمثيلية أم انه صادق ؟ فركت كفي مبتهجا . ها قد نجحت الخطة . تحياتي لك ايتها التليفزيونية الشقراء

السمراء ، رغم الكراهية المتبادلة . ولولا انك زوجة صديقي ، واسمك مشابه لتلك الممرضة الدائمة التحريض على الفسق العلني ، لكان لنا معها شيء آخر .

في المكتب المقابل ، كانت الطبيبة تنظر بدقة الى رسم القلب . قالت :

ـ اشك في ان هناك شيئا ما في « الاورطي » ايضا ..

باخت فرحتي .

## ( ٢ ) المثلون

في الثامنة والنصف تحرك القطار ولم تات « كوثر » . أوشكت على الانفجار كمدا لتخلفها عن وداعي . قفزت من القطار قبل ان يغادر الرصيف تماما . قلت ان الطقوس التي رسمتها لحفلتنا الوثنية لن تمارس . فيا للاسف ! ضاع جهد اليوم هدرا . كانت ستاتي فتجدني قلقا ادخن بشراهة . اقف معها قليلا . تسالني لماذا أسافر فاقول : واحد قريبي ، مات ، قتلته احدى الغارات على السويس . تنزعج . كيف ؟ لا تسافر . الصحف تزعق بأن اطنان القنابل تلقى على المدينة. هل انت مجنون ؟ اصر على السفر . لا بد الواجب يحتم هذا . والخطر ؟ ليس مهما في سبيل الواجب .

أنت اعز شيء عندي . ارجوك . اذ ذاك ابتسم بسمة غامضة . اقول :

ـ لا تخافي عليّ يا حبيبتي ..

اقبلها علنا وعلى هذا الرصيف . تلصق جسدها الشهي بجسدي. تذوب فيّ . تمرغ وجهها كالقطة في صدري ، تشرق عيناها بالدموع ، اقبلها . اقفز الى القطار وهو يمضي . تقف هي على رصيف المحطة ، تصرخ : اكتب لي . اقول ببسمة من لا يهمه الخطر : كل يوم ، اطمئني .. ساعود . يمضي القطار . يغادر الرصيف ، يبتعد شبحها الرقيق، يغيب في ظلمة البعد والليل .. تلوح بمنديلها الصغير . ألوح بيدي. عند قليوب ، اغادر القطار ، اعود بالاتوبيس الى بيتي ، بعد يومين اتصل بها . لا بعد ثلاثة . او اربعة . اقول عدت يا حبيبتي . لم اطق البعد عنك .. فلتريني شطارتك ايتها التليفزيونية المتعجرفة . هل يستطيع خيالك القاصر ان يرسم هذا « الاسكريبت » المتقن ؟ صحيح انك صاحبة الفكرة ، ولكني مطورها ومنفذها ، وغدا سابيعها في محلي التجاري ذاك الذي سافتتحه .

ها هو كل شيء قد فشل . سقطت حفلتنا سقوطا ذريعا .. فهل تشمت بي « ضحى » التليفزيونية ؟ يا له من يوم « بلوندي » مظلم . فكرت ان انتظر القطار التالي . ساعة اخرى لا تضر ، وربما تاتي .. آنذاك تغير قليلا في الحكاية . ما رايك لو زعمت ان قريبك هذا قد ترك ارملة شابة تحتاج رعاية . ولتدس في الحديث ما يفهم منه انها ارملة جميلة ، وانه كان بينكما ود قديم ، حب ام ود ؟ نتركها عائمة هكذا ونترك خيالها الشكاك يؤلف ما يشاء . هذه فكرة اطرف .. سيزيد قلقها عليك ولهفتها . ثم انه عقاب تستحقه على اخلافها الموعد . ادرت قرص التليفون برقم منزلها . قالت امها انها خرجت قبل ساعتين ولم تعد .

في شباك التذاكر ، نظر الى « التذكري » دهشا . سالني لماذا لم اسافر :

ـ فاتني القطار .

نظرته عجوزا ، كلامه مجهد كوجهه ، طاقم اسنانه قد بلي ..

ـ ولكنك اول من وصل الى هنا ، زاحمت . تشاجرت حتى تقطع لنفسك تذكرة ، القيت عليّ محاضرة حول مصالحك التي ستتعطل اذا لم تسافر ..

ابتسمت . ناولته التذكرة لكي يجعلها صالحة للقطار التالي :

ـ قطار التاسعة غير ممكن ، انه قطار حربي ، مخصص للجيش فقط . هناك قطار آخر بعده بنصف ساعة .

ـ لا مانع ..

تابعت حركة يده المرتعشة وهو ينتزع جزءا من الآلة ، ليغير رقم القطار . قربها من عينه جدا .

ـ انت في حاجة الى نظارة طبية .

ضحك ، كان ما يزال يعالج الآلة . قال :

ـ لا فائدة .. ارى بدونها خيرا ما ارى بها . اكلنا الزمن وانتهينا ..

ضحكت .

ـ لا تبدو عجوزا جدا ..

ـ مجاملة طيبة ولكن لا تغير الواقع .

ـ صحتك جيدة فيما ارى !

ـ لم احاول ان افحص نفسي . اخشى ان يقول الطبيب كف عن العمل . وهي كلمة لا تكلفه شيئا سوى ثانيتين من وقته . ولكنها تكلف من كان مثلي في رقبته كوم من اللحم ، اشياء لا حصر لها .

انهمك في اعادة الجزء الذي انتزعه . قلت اقسم ان قلبه مريض، وان هناك جلطة في الشريان التاجي ، وسيولة دمه صفر . قال :

ـ لم يفتك القطار .. فلماذا لم تسافر ؟

فكرت لحظة ، قلت :

ـ كنت انتظر من يودعني ، لكن لم يات احد ..

احنى رأسه ليرى جيدا المكان الذي سيعيد فيه الجزء المنتزع من جسم الاله . تحسسه باصابعه . قال :

ـ عملت في هذه المصلحة اربعين عاما .. بدات عطشجيا ثم كمساريا ، سافرت الاف المرات ، لم يكن في وداعي احد على الاطلاق ، واستقررت هنا بعد ان غدرت بي الصحة .

اخيرا استقر الجزء المنتزع بمكانه من الآلة . كان يخفي صلعته من البرد « ببيريه » ناحل اللون ، متسخ . وضع التذكرة على طاولته الرخامية . لهث بشدة . اخرج علبة صفيحية وورقة رقيقة واخذ يلف لنفسه سيجارة . اردف :

ـ لم يكن يودعني سوى صوت امي الله يرحمها . كانت سيدة طيبة ، كان صوتها يتصاعد بالدعاء لي في اي وقت اخرج فيه . في الصباح ، في الظهيرة ، وحتى في الفجر . كانت كفيفة . ولكن قدرتها على اكتشاف اقدامي كانت قدرة غريبة .. غريبة ..

انتهى من لف سيجارته ، اشعلها . تناول التذكرة وضعها في الآلة. قلت :

ـ وكيف كانت تدعو ..

ازدرد نفسا من سيجارته الهشه . كاد ياتي عليها . قال :

ـ آه كانت تقول : روح الله يكفيك شر سكتك يا بني ..

ابتسمت ، ساذج هو الرجل كامه . عجوز ومخرف مثلها . وكنت انتظر ان يقول حكمة بليغة ، تمخض الجبل فولد ابتذالا وتكرارا .. قلت :

ـ هذا دعاء معروف .. كل الامهات يقلنه ، ولا ادري اي شر تقصد . تنهد ،..

ـ اسكت يا استاذ .. انت شاب ولا تدري شر السكك ، الله لا يريك . ولا يحكم لا على عدو ولا على حبيب . امثالنا في رقبتهم كوم لحم ، عيال كالفراخ والحمام الصغير ، لو سقط الواحد منا تعرى لحمه ، جاع ، استجدى شرب الذل حتى اطراف الاصابع ..

في لهجة العجوز احسست برعب غريب . خفت :

ـ التذكره من فضلك ..

وهو يناولني التذكرة ..

ـ آه .. الساعة الان التاسعة وصل ٩٠٨ وهو الحربي .. اعرف المواعيد دون نظر الى ساعة .

ما كدت اخطو خطوتين ، حتى سمعت صوته ، مناديا :

ـ التتمة على الصفحة ٧١ ـ

# نصف كوب من دموع التماسيح

ـ تابع المنشور على الصفحة ٧ ـ

ـ يا استاذ .. يا استاذ ..

رفعت رأسي اليه :

ـ اسمع .. هذا آخر قطار اذا لم تات .. سافر وتوكل ، الله يكفيك شر سكتك .

هدأت خطواتي .. على الرصيف ، كان الجنود ينغلتون في سرعة خارقة . يبتسمون . تأملت وجوههم . قلت انهم صغار جدا ، ومبتسمون القى واحد علي السلام ولم اكن اعرفه . رائحة غريبة في اجسادهم لا تدري ما هي بالضبط . لكنها تشيع الدفء في هذه الليلة الباردة . ضحك واحد من بعيد . قال الاخر : اجازتي ٤٨ « س » اقابلك « سعت » ١٣٠٠ بكره . مصطلحات عسكرية . اعرفها جيدا . رائحتهم غريبة . ملابسهم صوفية خشنة ، فهل يمكن ان تدفىء هذه المحطة الواسعة ؟ احذيتهم ضخمة تدق الارض في صلابة . قال حمال عجوز من الرصيف البعيد « عاملين ايه يا ولاد ؟ » واحد : بمب . آخر : فولاذ . ثالث : الحديد بلى واحنا لم بلينا . الحمال : جدعان . واحد: ازيك يا عم بدوي . كما تركتموني في الشهر الماضي . انتم من اي سريه ؟. الله نسيت يا عم بدوي . ذاكرتك ضعفت . عجزت وراحت عليك . جاء يلهث من الرصيف الثالث ، قفز وصعد ، بالاحضان ، كيف حالكم يا ولاد ؟. قلنا مال . عملتوا ايه الجمعه دي ؟. الم تسمع الاذاعة ؟. سمعت ، الضرب كان جامدا جدا . ولا يهمك ، اجمد ، كله في الحجاره وشرفك يا عم بدوي. هدموا السويس اولاد الكلب، بركاتك يا سيدي الاربعين . قلنا لا نهتم ، كله في الحجر . نحن الذين بنينا ونحن سنبني غيره . يا عيال انتم لا تعرفون غلاوة السويس عندي . اخذت من لحمي طبقات . الشباب ، والرجوله ، والكهوله ، اجدع رجاله ، وامتع النساء اطيب الامهات ، الهى وانت جاهي ، بحق محمد حبيبك ، لا تمتني قبل ما اشوفك يا سويس منصوره ، وراسك مرفوعه . هل ستخطب ، يابن الكلب انت وهو ، عمكوا بدوي لا يخطب شيلني ، انت وهو . هات ما بيدك . وانت . وانت . وانت . انا لا ـ ليه ؟. انت يا عم بدوي ترفض ان تأخذ نقودا مقابل المثال . سبحان الله . هذه هي الشيل . يا جدعان يا عالم . يا هوه . انت مستجد؟. انت كركي . قلت الف مليون مره ، على ندر لسيدي الاربعين وستي الطاهرة لا امد يدي وآخذ قرشا من العسكريه . انا يا ولد انت بايع نفسي للجهاديه اسأل فائدك . انت في سريه من ؟. اسم الملازم بتاعك ايه ؟. كل عساكر وضباط خط القنال عارفين ان بدوي لا يأخذ نقودا من العسكريه . الضباط من ملازم للواء عارفين . المرحوم عبد المنعم رياض بنفسه كان عارف . انت تهزأني . تهين شيبتي . انت كركي يا ولد . مستجد . من اجل قرشك الماسح امرغ شرف العائلة في التراب اسأل كل خط « الكنال » ، « بدوي ابو مصطفى » يبقى مين ابوه ، مين جده ، يا وله دانا جدي لم « البياض » لعرابي ، شال القمح والذره وحتى التبن والفراخ والبيض ، ووصلهم لحد المعسكر في التل الكبير . احنا بعنا نفسنا من جدود الجدود للجهادية ، عمرنا ما قلنا هاتوا . حاربوا انتوا ، احنا كتفكم . رصاصة البندقية . ومقام المصطفى لولا انك كركي لاشتكيتك للقائد العام ذاته . الله . اهدأ ياعم بدوي . على مهلك . بالراحة . الجدع لم يقل شيئا . الذي لا يعرفك يا سيدي يجهل مقامك . حفك علينا . وآدى راسك . طيب . خلاص . تعالى يا « دفعه » . لا تزعل من عمك بدوي . هات ما معك من احمال . اقولك نصيحة . اذا كنت متزوج اطلع الى الجماعة معتدل مارش . مازحهم . هارشهم . كلمه فى حدوته . الليلة ليله الجمعة . فاهم يا قفل . لا تكن « كركيا » فى العسكريه وفي السرير . الست تنتظر رجلها الغائب بشوق ، لا تكن خائبا . معتدل مارش على طول . المرحوم عبد المنعم رياض نفسه وعدني ان يسمي ابنه بدوي . مره قلت له . يا ابو رياض ايه اخرتها . قال اصبر يا بدوي . قبل ما يموت بجمعه كان هنا ؟ جريت شلت له الشنطة . قال لي : ابه رأيك يابدوي؟ قلت عال شدوا حيلكم . سألني : يعني مبسوط . شرقت عيني بالدموع الا مبسوط. مبسوط قوي. سيناء دي غاليه علينا قوي يا ابو رياض، دي أكلت لحمه ياما ، الواحد مننا يعيش ويموت ياكل بالكاد عشرة كيلو لحمة ، ويمكن اقل ، دي واكله ييجي نص مليون كيلو لحمة ، دا غير الدم ، بعد ده كله نفرط فيها . قال : لا تخف يا بدوي . يومها عزم علي بسيجاره زعلت . فلت له يا ابو رياض دانت كلك نظر . انت تعرف ان بدوي لا يأخذ شيئا من العسكريه . طبطب على كتفي وقال : انا عارف . دي مش اجره . دي تحيه . يصح احييك بسيجارة . وترفض تحيتي . مقبول يا جدع . سألته : انا قرأت في الجورنال انك عازب . ليه ؟ تبسم . قال . ما خلاص بقى يا بدوي . قلت له : لا .. كله اللاده يا ابو رياض ، الرجاله لازم تخلف رجاله . قال : بعد ما نخلص باذن الله نبقى نشوف . قلت له : حلفتك بالحسين تسمى ابنك بدوي . قال: على عيني . الله يرحمه . كان دكر . يا سلام يا ولاد . وديني وما اعبد السيجارة معي حتى الان ، مادخنتها ، شايلها حرز ..... هه .. معتدل مارش يا ولد على الجماعة طوالى . غدا مساء « عد كما كنت » احكي لعمك بدوي ما حصل . والحق السويس .

التقطت عيني المهاجره خلفهم شبح كوثر ، عند مدخل الرصيف.

شفتا حبيبتي كالكرز في اوان النضج . شهيتان مضمومتان ، فاذا انفرجتا بلا كلام ، حركتا في القلب اشواق الاحتضان والذوب والموت حبا . فاذا ما تكلمت باخت الاشواق ، واغتيلت الاحضان ، وآن لنا ان نموت قرفا . قالت انها تأخرت عن وداعي لانها كانت عند الكوافير ، زمتهما ، اردفت :

ـ انت لا تعرف ميمي .. كان اليوم مشغولا جدا ، بعد لتسريحات رأس السنة وقد رجوته ان يقدمني على زبونة اخرى ، وتطلب ذلك وقتا. ميمي لا يحب هذا . الحجت . كدت اقبل يديه . واخيرا وافق. مدهش جدا ميمي ، لذلك تأخرت .

لم اكن قد وضعت ذلك المشهد في طقوس حفلتنا الوثينة . وايضا فان عبارة « روح الله يكفيك شر سكتك » كانت تطن في رأسي كذبابة زرقاء ملحاحة وبشعة . ومتى يصل الجندي الصغير الى منزل زوجته ؟ قلت أتلوا نص الحفله كما وضعته :

ـ كنت اسافر دون ان اودعك ..

أبدو كممثل ردىء الحفظ :

ـ لم يكن من الممكن ان آتي لاودعك وشعري ليس في « الفورمه » ما رأيك في هذه التسريحة ؟

ـ آه ، جميله .. جميله جدا ..

لفت معطفها ذو الياقة الفرائية عددا من الناس . وكيف غطت روائح الجنود عطرها النفاذ .

ـ لماذا تسافر ؟

ـ قريب ، استشهد في الحرب ، اريد ان اشيعه .

ألقت نظرة على نفسها في مرآة موضوعة على الرصيف لشحنها . قالت :

ـ الم يجد وقتا يموت فيه الا هذا . حفل رأس السنة في الطريق لماذا لا تكتفي بارسال برقية ؟

كنت افكر لحظتها في ان هناك انواعا من انثى الحيوان تفرز رائحة لاجتذاب الذكر ، تضاجعه وتأكله بعد المضاجعه .. قلت فجأة :

ـ هذا افضل

خرجنا معا .. ونحن نهبط السلالم الى الفناء .

ـ يجتذب جمالك الانظار .

بنظرة مباهية :

ـ هذا طبيعي .

بدفعة قلت :

ـ لنفرض ان ميمي كان قد رفض .. فهل كنت تتخلفين عن وداعي ؟

ـ لا ادري ، لا يمكن ان ادعك تراني وانا لست في « الفورمه »!

كانت كفها في كفي . لاحظت فجأة انها تلبس قفازا صوفيا . فتحت قبضة يدي . سقطت كفها من قبضتي :

ـ ماذا حدث ؟

ـ لا شيء .. خشيت ان تعرق يدي فيتسخ قفازك .

★★★

قلت ان عليّ ان ابحث عن قناع يصلح لحفلة رأس السنة . وفي المساء كانت « ضحى » تشرف على تعليق الزينات ونحن في الصالون. ذهبت وجاءت واصدرت الف امر . سلمت عليّ بفتور . تحدثت عن حلقة جديدة من برنامجها . كانت سمراء في تلك الليله . وهذا يعني انه يوم الاحد . اخذت اتابع نتيجة العام في رأسي لاعرف ما ستكون عليه ليلة رأس السنة . قلت انها لا بد ستفاجئنا بشيء جديد . وغالبا ستكون خضراء الشعر ، وربما حمراءه . ضحكت لخاطري . انهى حسين مكالمة حول ماكينات ري سيشتريها . والارقام بالالوف . وضع السماعة . قال بارتياح :

ـ خمسة آلاف جنيه بمكالمة تليفونيه .

نظرت اليه . ظن نظراتي انبهارا في الغالب . قال موضحا :

ـ لا شيء . منذ ساعة كلمني عميل يطلب مئة ماكينه ري . سأل هل عندك . قلت عندي . بصراحة وانت لست غريبا . لا يوجد عندي شيء . ولكني اعرف الذين عندهم . وهذه المعرفة في عرف التجار رأس مال . اتفقت معه على السعر . بتليفون اخر اتصلت بمن عنده الماكينات اشتريتها وأمرت بشحنها الى طالبها . الفرق خمسون جنيها في الماكينة الواحدة ، مكسب صاف اربعة الاف جنيه وتسعمائة وتسع وتسعون جنيها ، وستة وتسعون قرشا ، بعد حسم قيمة المكالمتين التليفونيتين بالسعر التجاري !

هنأته بذكائه . قال وهو ينظر الى النيل عبر زجاج الشرفه :

ـ ارجو ان تعقل وتترك عملك السخيف هذا . وتأتي للعمل معي . ساعينك مديرا لمعرض شارع عدلي مرتب خمسون جنيها وعمولة ٥٪ كبداية ..

قلت وانا استعد للخروج معه :

ـ اشكرك على هذا العرض الذي لا اوافق عليه .

قبل ان يقف المصعد امامنا قال :

ـ سنناقش الموضوع . ولكن لا تقل انك ستعود الى « شقاوة » ايام زمان !

ابتسمت ولم ارد . حياه البواب باحترام يليق بصاحب العماره. قلت ان صداقة صاحب عمارة شيء مفيد جدا ، والا ما حلمت يوما بالسكن في هذا الحي الراقي ، فضلا عن الدعوات المتعددة للغداء وللعشاء . وايام زمان لم تكن هناك فروق مقعد واحد في مدرسة ابتدائية ثم ثانوية بالسويس . فهل تظن ان مجهودك في كتابة مواضيع الانشاء له تساوي هذه التسهيلات التي يقدمها ؟ وحذار ان تنزلق اقدامك فتراك التلفزيونية اللامعة مجرد واحد من « محاسيب العائلة » تخلع عليه ثياب زوجها القديمة . بيني وبينها ود مفقود . ومرة شكا حسين من انه يفقد متعته معها في الفراش ، لانها تمارس الحب « بالباروكه » ، وهو يحلم بالعبث في شعرها ، بان يقبله ، يحمله توترات شوقه ولهفته . وبرغم الود المفقود فقد اهدتك بنت خالتها . وشجعت ارتباطها بك . فلماذا ؟. تحركت السيارة بنا . اخذت اتابع العروسة القوقازية المتراقصة قال :

ـ ماذا قلت في ادارة معرض عدلي !

ـ يفتح الله ..

اشعلت له السيجاره :

ـ لا اهزل . انا اقدم العرض باسمي وباسم « ضحى » .

هل هو عرض تليفزيوني ؟

ـ لا افهم ..

ـ انا رجل تاجر ، واحب الكلام المباشر . ونحن قبل هذا اصدقاء قدماء ، واذن فلادخل في الموضوع مباشرة .

ـ اعلم وتعلم ان بيني وبين ضحى ودا مفقودا .. فما شأنها بالموضوع ؟ ابتسم ، دخل زحام شارع ٢٦ يوليو :

ـ هذا طبيعي ، انت صديقي ، وهي تخشى ان تجرني الى ما تسميه هي « شقاوة » زمان ، فهي تعتبرك متطرفا وهداما ، وافكارك تخرب البيوت العامرة . وهي تعلم ان صداقتنا قديمة وليس من السهل فصمها . وقد ظنت انها وقد اهدتك « كوثر » ضمنت ان تعقل ، ولكن يبدو انها غير واثقة تماما ، ثم هي تريد ان تهيىء لكما دخلا مناسبا . ومن ناحية اخرى فانا ابحث عن اسم اقدم عطاءات مقاولاتي مستترا به، فالضرائب اصبحت جزارة ، والحكومة بدون مؤاخذة ولا زعل ، وبدون التعرض لعواطفك نحوها ، بنت كلب ، وما اسرع ما تصدر قرارات التأميم !

صمت ، قلت ادركوني يا عالم . ما آخرة هذا « الضحى » المظلم ، في المستشفى تحريض على الفسق ، وفي المنزل تحريض على الخيانة الوطنية ؟ فمتى يدركنا الليل اذا سجى ! سرحت في العروسة القوقازية :

ـ فكر .. جيدا ورد عليّ ..

بعد لحظة :

ـ تهتم بهذه العروسة كثيرا .. الانها من بلاد اصحابك !

ـ انها طبيعية جدا ، وهذا كل شيء .. انظر ، انها دمية، ومع ذلك فهي لا تلبس باروكه ..

شددت شعرها .. لأؤكد له قولي . شعرت بضيق مفاجيء . وهو يمر عبر شارع رمسيس تذكرتهم ..

ـ انزلني هنا .

ـ الى اين ؟

ـ تذكرت ان لديّ موعدا ..

مضى .. تركني وحيدا على الطوار .

## ( ٣ ) الاسماء الغليظة لمدينة سياحية

في المقهى كانوا متجمعين كما توقعت . شاي شيشه . قهوة على الريحة . غارة حلوان الاخيرة ، زفت ، لا تصدق ما يقال عن ان المدنيين لم يصابوا . هناك مئات القتلى . اشاعات فلا تصدقوها . ولنفرض انها حدثت لا يهم . لا حرب بلا قتلى . يقتلون المدنيين في فيتنام بالمئات كل يوم ولا احد يولول . ملعون ابو نيكسون الكبير . وحياة النبي سنكسر رجله ورجل الذين وضعوا تقاويه . يقال ان غارة حلوان الاخيرة قتل فيها عشرون . كذب . اشاعة . يا اولاد الافاعي كلامكم يندرج تحت بند تخريب الروح المعنوية . فهل تحفظون نصوص قانون الطوارىء ام انكم تخرفون والسلام ؟ انت عكننة رسمية يا استاذ رافت فماذا اتى بك ؟ اوحشتني مقاهي السويس وقلت القاكم هنا. اجدر بنا ان نسمي هذا المقهى : قهوة ابطال الشعب . اقترح ان نسميها اسما حديثا مودرن ، مثلا نسميها « السويس ٥٦ » . ليكن ابطال السويس ٥٦ . الافضل ان نسميها قهوة الطاولة والشيشة . سابقا ابطال السويس ٥٦ . كنا ابطالا حقا يا اولاد الكلب . لم تنشر جريدة صورنا ، ولكنا مع ذلك ابطال . شيش ياك . جهاردو. مارس ياروح امك . يا استاذ رافت من ينظر اليك يحسد المهاجرين. انت دعاية سيئة قد تغري الحكومة بانقاص الاعانات . هل تعرف اخصائيا اجتماعيا بوزارة الشئون اسمه خليل عطية ؟ نعم دفعتي. لايمنى على ورقة وقلم . اكتب توصية . حفيت قدماي وراءه . دفعتكم ولا مؤاخذة زفت . قطران . البنت حبلت هي وامها في شهر واحد ، فابشركم بخراب بيتي . هذا دليل على نشاطك الزائد انت وزوج بنتك،

فتهنئتي للمرأتين بما حباهما الله من حظ تحسدهما عليه الكثيرات . ولكن هذا الحظ ينتج عنه نتائج سيئة . لا حلاوة بدون نار ، وهذا عقاب من المولى لكم على اغراقكم في الملذات . كنا ابطالا سنة ١٩٥٦ واحلنا الان على المعاش . اسمعوا فصل الخطاب ، لا احد يمنع احدا ان يكون بطلا . ولكنهم هجرونا . حياة النساء والاطفال ليست لعبة . ولكننا لسنا نساء ولا اطفالا بدليل ان زوجتي وابنتي حبلتا في وقت واحد . الطابية في خطر فاحذر . الصبر طيب ، ستكش الملك حالا . لم يعد لديك ولا عسكري . كنت احمي مؤخرة الولد الذي القى القنبلة على ويليامز . يومها رقصت . في المرة الماضية خدمتهم الظروف فلم يتقدموا الى السويس ، والا كانت نهايتهم . بمناسبة ان زوجتك وابنتك قد حبلتا انصحهما برؤية برنامج «دروس في السعادة الزوجية » على القناة خمسة ، تقدمه الست « ضحى » بنت السويس ، شجعوا منتجات السويس . شيء ظريف ان تلقن السويس بقية البلاد دروسا في السعادة الزوجية . آيه سعادتنا الزوجية ان البنت وامها حبلتا في وقت واحد . قل لي هل تتفق الام والبنت على مواعيد الخلوة الشرعية ؟ مية مسا على اهل السويس . رجاله وعهد الله . بيوتنا صارت احجارا ونحن نلعب الطاولة . اذكركم بقانون الطوارىء رقم ١١٨ لسنة ١٩٥٨ . انت عكننه رسمية ياأستاذ رأفت . الحصان في خطر وهذا يعني ان الدور على الملك . ولو سأهزمك ولو كنت الزناتي خليفة . كيف حال حسين بيك .. ما رأيكم لو بحث لنا عن عمل ، او تبحث لنا الست « ضحى عن دور نمثله في التليفزيون . هم يمثلون اما نحن فنموت . « حسين » ساعدنا في سنة ١٩٥٦ . اشترى لنا سلاحا وهربنا في عربته . فعل ذلك لانه صديق الاستاذ رأفت . على فكرة بنتي مريضة وسآتيك بها المستشفى قريبا . نشر «حسين» بيك اعلانا في اهرام اليوم يؤيد ويهنىء ويضع امواله في خدمة المعركة . لماذا لا يقبلونني وزوج ابنتي ممثلين في التليفزيون ؟ اهديك مثلا قديما تعلمته من جدتي ، وقد يفيد في حالتك . وما هو ؟ آه ، لما انت امير وانا امير ، من الذي يسرح بالحمير ؟ لا افهم . ولا انا . الملك في خطر فانقذوه . واحد شاي. اللعبة القادمة هي آخر لعبة ، لو ذهبنا لهم وقلنا نريد ان نحارب فلن يمنعنا احد . بل سيرحبون . الملك في خطر . اصمتوا حتى نسمع نشرة الاخبار .

★★★

غادرت « الاوتوبيس » كما وصفت امام مزلقان « عايدة » .لماذا سموه هكذا ؟ لا احد يعرف . عبرت شريط السكة الحديدية . سألت مارا : اليست العزبة هنا ؟ قال : « عزبة بلال ام عزبة الورد؟» قلت : عزبة الورد . نظر بعينين عمشاوين الى البيوت القريبة .قال: اعبر الشريط واتجه يمينا . شكرا . الشكر لله . تبدو البيوت طينيه فما مدى ما تحمل العزبة من اسمها ، ومتى تهب روائح الورد ، وتكتحل العين بمرآة ؟ هذه منطقة غريبة ، كيف يوجد مثلها في المدينة الضخمة ولا اعرفها . ياللقذارة ! بيوت طينية كالحة . طافحة بالهم فاين الورد ؟ هنيء نفسك على هذا التدهور الباهر . تأتي بلادنا كالسياح ، فاين القبعة و« البايب » ؟ برافو خواجة رأفت .هاوآريو How are you تأتي لزيارة الورد يا خواجه ؟. اليك اذن هذا المستنقع البشري من القاذورات . طلمبات مياه للشوارع كما لو كنا في قرية نائية . لمبات جاز تنظف ، واذن فلا كهرباء . كهرباءياخواجة؟ اين المرآة لابصق على وجهي لعله ينظف نساء ممصوصات كأن الحكيمات قد أكلن لحومهن ؟ تأمل هذه الفكرة . هل كانت ارداف «ضحى» بهذه الدسامة عندما دخلت المستشفى ؟ ولماذا هزلت ارداف المريضات في عنبر ٣ ؟ . اكلت بنت الكلب ارداهن ، شوتها ، سلقتها ، صنعت منها « اسكالوب » ، اكلته ، نمت ارداهما ، تمددت ، سلطتها عليّ ، فمتى يدعمون قوات الدفاع ضد الحرب الاليكترونية ؟ اتسخ الحذاء بروث البهائم . تقتحمك العيون كأنها لم تر افنديا ببدلة طول العمر. فصلتها بالتفسيط فلا يهولنكم انها صوف انجليزي . باق عليّ قسطان . ورباط العنق ؟ : هدية من صديقي زوج التليفزيونية .لا بد من نقل البنت الى المستشفى اليوم مهما حدث ؟ اين الورد يا عزبة الورد ؟ هذا ما قالته الدكتورة وداد . رفعت منظارها الطبي فيا لجمال العيون ، ولكن لماذا تبدو العين كما لو كانت زجاجا ملونا باتقان ولا اكثر ؟ قالت :

ـ تدهورت الحالة جدا يا استاذ رأفت ، وقد تصاب بنكسة مفاجئة تقضي عليها ، لذلك ارى ان تقنع الاسرة بنقلها الى المستشفى لكي نجري ابحاثنا في هدوء . هناك سرير خال بعنبر ٢ . حاولت اقناع والدها اليوم ولكنه صعيدي صلب الرأس ، ارسلته اليك فلم يجدك. ارجو ان تغير خط سيرك وتزورها غدا ..

نظرت الى ما ظهر من ساقيها عبر المعطف الابيض . اعلنت لنفسي نتيجة آخر معاينة . الفخذان ٩ على ١٠ واذا كان باطن الركبة بهذا اللين والصفاء . فكيف يكون النهد ؟

قلت :

ـ وهذا يعطي فرصة لعلاجها ، اليس كذلك ؟..

بلهجة محايدة :

ـ ارجو هذا .

ـ هل هناك امل في ذلك ؟

ـ لا مستحيل امام العلم ، ولكنها في حاجة الى عناية طويلة.

كنت قد حفظت العنوان ، حاولت ان استدل على لافتة الشارع بنفسي دون سؤال . ولكن يبدو الا فائدة . نظرات فضولية تنفذ الى رأسي مع رائحة بول نفاذه مخاط وبصاق . نفايات خضروات . قطط تجري وكلاب . ذباب اسود ، ازرق ، واخضر . اين الورد يا عزبة الورد ؟. شم يا خواجه .منتّع معطسيك بالروائح . تعودت على « بارفان » كوثر الباريسي . شمّ الآن رائحة عرقها . الصديد والبراز، جروح ملوثة باربطة قذرة . الذباب ياكل عيون الاطفال . ام تضع طفلها الصغير في المثلث بين قدميها المرتكزة على الارض وقصبة ساقها ، تهزه ليتبرز . تسلل سائل اصفر لزج . نزلة معوية ستقضي عليه خلال ايام . ما اجمل وردك يا عزبة الورد ! كيف حالك يا خواجا ؟. هاوآريو ؟ كومانتالي فو مسيو رأفت ؟

عمن تسأل . عم مسعود الصعيدي ؟.آه النصراني ؟ هناك عند الدكان في اخر هذا الشارع . شكرا . بركة مياه آسنة ، اسبح يا خواجه . احص الدود وانواعه . البلهارسيا والانكلستوما وكل طفيليات العالم . تحلم بمياه فيشي وكارل لومبارد . هاتي الميكروسكوب يا دكتورة وداد . اجلسي على هذا الشاطىء الآسن ، اخلعي المعطف الثلجي والفستان والسوتيان وكل شيء ، افحصي هذا العالم الوردي الجميل بميكروسكوبك . وزعي لحم ارداقك الزائد يا « ضحى » على تلك الهوام البشرية . يومذاك نهتف بحياة العلم والعلماء . ونشرب الويسكي ليلة رأس السنة من هذه البحيرة المتخمرة . معتقة وحتى كريز اوان النضج في شقتيك ياكوثرتي ، انت نهر من انهار الجنة ،ولكن منبعه هنا ، تعالوا نسبح يا اولاد الكلب . الخواجا رأفت يسأل الترجمان عن التماسيح في نهر النيل . ورأس الخواجا ضخم وفمه مثلث ضلعه نصف متر وزاويته حادة . وغدا سيحتفل بليلة رأس السنة. يبلغ كؤوس الوسكي ، الكأس الواحدة باربعين قرشا ، ويهتف عند السكر بسقوط الفقر ، ويتحدث عن العدل والحرية.

طرقت الباب فافتحوا ، جاءكم الخواجا باوراقه . ابشروا اصبح لكم ملف . هذا شرف لكم . تكتب ايدينا المرفهة الطرية اسماءكم السخيفة الملوثة بالغبار ، على ورق كوشيه وستانيه ..١ جم ،نظرة البنت التي فتحت مذعورة . آه ما اجمل العيون ! لولا الخوف من شر السكك ، انا رأفت من المستشفى . عشان حكمت . اجل . اتفضل ظلام وعفونة ، فلمن تشرق هذه الشمس الساطعة في الخارج . تلمع الباروكة الشقراء في الشمس فتضوي . اين الورد في الندى المؤتلق بنور الفجر ؟ حكمت نائمة في الداخل . اخفض الراس والا اصطدم،

فهذا جعير فئران وجراء صغيرة . يرتفع الصدر ويهبط . وشعرها الاشقر متبدد على الوسادة . العيون مغمضة . الوجنتان شاحبتان، انتفاخ اسفل العينين . افتحي العيون فاني شبق للنظر يا طفلتي. كلمني الخواجا الذي جاءك « باللف » من بلاد الويسكي والبيروك والبوستيش والشارب الدوجلاسي . جئتك « بماء الحياة » ، لارداليك الحياة ، كما فعل العفريت في الف ليلة . من انت ؟.. ليزا . آه.. اختها الذاهبة العقل ؟ احترس والا طالك جنون الورد . وتامل هذا الدرس من دروس السعادة الزوجية . طفلة يتيمة بين الحياة والموت، مغطاة بغطاء صوفي مزركش وممزق . يسمونه في قريتنا « حملا »،قطع الاف الكيلومترات ، ولعلهم وجدوه يوما ملقى في الطريق . اورقوه. تفكر في ان تكون ستائر شفتك اورجينال . ومرة فكرت في ان هذا النسيج الصوفي الذي ينسجونه على انوال يدوية ويصبغونه بانفسهم، يصلح للستائر ، ما رأيك الان يا خواجه . يتركون طفلة مريضة في رعاية مجنونة ؟. أين عم مسعود ؟ خرج ؟ اين ذهب ؟ يركب حدوة لحمار الواد شلبي . هل سيغيب ؟ لا . زمانه في الطريق . تفضل . افتحي العيون السندسية فاني ظامىء للصبا يا طفلتي . لا تردي عمك الخواجا خائبا . واين ذهب الدم من شفتيك يا كريزا قارب النضج، فمن المتالمه ؟

عيناك ياليزا واسعتان بالجنون ، لا ينقصني الجنون فحوليهما عني . تاخر العم مسعود . زمانه جاي . انت كنت هناك . هناك اين؟ انا شفتك هناك ؟ هناك اين ؟ عند العدرا . انا شفتها . كنت اقف هكذا . ليلة بطول الليل ، رنمت مع المرنمين . دعوت مع الداعين . تلوت الزامير . قلت يا عادره . كراماتك . العذيا كانت برد . انتكنت جنبي ، مشيت كده . تنطتت .. رسمت الصليب . الناس مشيت . فضلت لوحدي . حكمت كانت معايا . نامت . غطيتها بديل الجلابية . في نص الليل طلعت هناك عند قبة الكنيسة . انا شفتها . انت شفتها . صحيت حكمت . قلت بعزم صوتي . يا عادره . انا عيانة. حكمت عيانة . بركاتك يا امنا العدرا . وحياة سانت تريزا ، رجعي لي عقلي . اشفي ابوي . ارزقيه يا عادره . داحنا غلابه يا عادره .غلابة وحياة ربنا يسوع . صوتك معانا يا ابونا غبريال . عيطت . دموعي نزلت سح . انت كمان عيطت . قلت ياعادره قالت انت خاطية . زعقت . غصبا عني يا امنا . وحياة الرب غصبا عني . ضحك علي . قال لي يابت جبت لك منديل باويه . قلت له انت بتضحك علي . عاوز تعمل قباحة . قال لي المنديل حلو . قلت له انت فاكر انني عبيطة . فاكرني مجنونة . برك فوقي ياعدرا . وقعني في الخطا ، ومقام الرب غصبا عني ، قطعت المنديل ورميته في الترعة . كان احمر . والمسيح الحي ما اخذت منه شيء . زود بومبتي قرشين . كنا في ورشة طوب في ابو قرقاص . يا خسارة، غابت العدرا ورا القبة ، كنت لسه بتكلم .. لم تسمع كلامي .. بكيت بكت حكمت .. انت ايضا بكيت . قلت لحكمت .. ستاتي مرة اخرى ، ساحكي لها مرة اخرى ، وغلاوتك يا سنت تريز كان غصبا عني . مرة واحدة فقط . لم افعلها مرةاخرى. يا خرابي انا اسد بين فخذي بالطين ولا افعل هذا .

وولولت . ولولي ياليزا . عمك الخواجا يبكي ، ولولي . هاتي حذائك اضرب به نفسي . لا حذاء لديك . ذهبت الى الزيتون ماشية اصرخي اسمعيني هذا اللحن الطروب . اذني يسكنها « الجازبند » ويعشش فيها كالبوم في الخرائب . تجمع الناس . ضجيجهم في الخارج . المجنونة حاءتها الحالة . ياوله . نادى عمك مسعود من هناك .

جارة جاءت تعالى فرحفني يا حبيبتي . معلش . العدرا زعلانة مني يا خاله . معلش . بكره ترضى . قالت انني خاطية . صلي يااختي. صلى . بسم الله الرحمن الرحيم . انت مين يا اخويا ؟. انا من المستشفى . أهلا وسهلا يا اخويا . لا مؤاخذة ، علبها باسم اللهالرحمن الرحيم اسياد . اجل علبها « اسياد » ، كله من « الاسياد » !. عم مسعود . أهلا وسهلا . رافت البشلاوي ، اخصائي اجتماعي بالمستشفى . اهلا وسهلا . جرى ابه بابت . جتها الحالة . العصا موجودة . يا مقدس مش كده ، دي غلبانة ؟. ارحموني يا عالم يا رب كفاية بقى . ايوب كان نبي . انا بني آدم . ايوب حي في الاخر، مش كفاية بقى يارب . اتفضل يا افندي بره . اسمك الثلاثي لو سمحت . مسعود ميخائيل الصعيدي . الحمل يا بنت . اتفضل على المصطبة . جاء الحمل الذي كانت تتطى به البنت . احسست به يلدغني في مؤخرتي . صعيدي جدا ولكن راسه لا يمكن ان تكونصلبة. فهي لا تحتمل ضربة واحدة بالكف لتفتت الى ذرات من الرمال . غني مواويلك يا عم مسعود . اسمع الخواجا رافت البشلاوي اغانيك الفولكلورية . ليعود بها الى شقته ويتدثر بالغطاء يحللهاويدرسها. هات القراع في راسك ، وقلب حكمت المنضخم ، وصمام الميترال التالف ، وبكارة ليزا التي ضاعت بمنديل راس ، لافدمهم هدية رأس السنة للدكتورة وداد . لتدرس وتحلل وتكتب مقالها السادس للمجلة الطبية الاميركية . ذي اميريكان ميديكال جورنال . لا ترو شيئا .هات اقدامك فقط . اضعها في ملفي . اقدمها لهم . جاءكم الخواجا باثر تاريخي . تحفة والله العظيم . وظهارة العدرا تحفة ، تاملي ياودادتي وانت يا « ضحى » يا حكيمة ، يا ردفية النظرات . هذه اقداممسعود الصعيدي مشققة . مشققة . مشققة .. اخاديد باطني القدم طويلة ، عميقة واسعة هاتوا المساطر وادوات القياس ، تحسب مساحة الاخاديد. ونتوءاتها سمك الطبقة السوداء الميتة . كمية ما شربت من ترابوعرق واشواك وحصى . نطبق كل قوانين الرياضيات . لنصل الى المسافة التي سارها . الفصول التي هاجر خلالها من « جهينه » في اقصى الجنوب .. الى هنا في عزبة الورد المروي بالصديد والبصاقوالمخاط.

الخواجا مرهق ويستاذن ، امتلا الملف كتابة فهل تاخذ لهم عينة من النمو المجففة ، قال :

ـ هل ستاخذها معك يا استاذ ؟

لا ، طبعا ، انت لا تدري شيئا عن « العلاقة المهينة » ، لسنا اصدقاء . انت « عميل » وانا اخصائي اجتماعي . مهمتي انااساعدك لتتمكن من مساعدة نفسك ، وحل مشاكلك معتمدا على نفسك فقط . لقد بصرتك بالخطر ، وعليك انت ان تاخذ القرار . هكذا يقضيالعلم، وبهذا تقول قوانينه .

متهربا ..

ـ تعال بها في اي وقت .. هنالاخبر في الاستقبال بان لهاسريرا. واذن دخول جاهزا . سيوقعه الطبيب النوبتجي بمجرد وصولها . اسأل على التمورجيه منيرة . وستجد لديها كل الورق .

قال :

ـ ولكن ... اصل ..

تردد ولم يكمل . تهدل شاربه في ذلة . قلت انه يمنع نفسه من التسول .. مضى الخواجا . وضع الفليون في فمه . والقبعة فوق راسه . تشاو سنيور رافت . جود باي .اوريفوار .

اشار الخواجه .

ـ تاكسي .

## ( ٤ ) صحيفة السوابق لمواطن طاهر الذيل

كورت منيرة ورقة اليوم الثلاثين من الشهر . بقيت ورقة آخر ايام العام . تحدثت كوثر بالتليفون . قالت :

ـ كل سنة وانت طيب . هل تمر لتاخذني في التاسعة ؟

وعدتها بذلك . فلتهنأ باستقبال العام الجديد في جنة الكريز، سابحا في نهر الكوثر. في تليفون اخر ، طلب صديق ان اشرفحفلته. اعتذرت بانني مرتبط بحفلة اخرى . جاءت الدكتورة « وداد » في يدها اوراق . قالت :

ـ هل تؤدي لي خدمة ؟

ـ تحت امرك .

وضعت الاوراق على سطح المكتب الزجاجي . قالت :

ـ هذه مقالة سارسلها للاميركان ميديكال جورنال . وقد راجعتها مرارا ، ولكن اخشى ان تكـون هناك اخطاء مطبعية قد فاتت عليّ . هل تلقي عليها نظرة ؟

أومأت موافقا . شكرتني . تركت المقال على مكتبي . استدارت في طريق الخروج . الارداف سبعـة على عشرة . نسبة لا بأس بها . متى نرى بسمة حقيقيـة لهذا الكائن المتوحش ؟ ما جدوى كل هذه الافكار، ايسيئك حقـا اهتمامهـا بالعلم ؟ ليست هذه هي المشكلة . ولكنها لا تهتم بشيء آخر غير العلم . وهذا مزعج . التفتت وهي عند الباب .

ـ على فكرة ، هل زرت حكمت مسعود الصعيدي ؟

قلت وانا اقيس تكـور صدرهـا مزيحا الثياب :

ـ نعم ، ووعد والدهـا باحضارها اليوم .

ـ هل اطمع ان تزودني بالبحث الاجتمـاعي لحالتها ؟.

ـ ارجو هـذا .

ها هي الاقدام المشققة في الملف ولا شيء آخر . فكحلي عيونـك الميكروسكوبية بها ولنراجع المقالة . برغم الخبرة المحدودة ، فانهـا تتوصل الى نتائج باهرة . لا تستطيع ان تنكـر اهتمامها بعملها . فاين تكمن ثلجيتها الحقيقية ؟ انتهيت . أيـن ملف حكمت لنكتب ؟ سطور. سطـور حبر ازرق كنهر ، صاعد هابط . متلو . حروف . الف وياء ونون . ومصطلحات . قدم خفيفة تدق . اهلا ضحى ، يا صبـاح الارداف الفنية . قالت :

قالت :

ـ الدكتورة وداد في العيادة تسأل عنك .

وحيدان في الغرفة . التوتر يشحنها . الملف على المكتب . راديو ترانزستور في يدهـا

قالت :

ـ حدثت غارة على دهشور اليوم .

نظرت اليها مستفهما . يا بنت الكلب غضّي البصر . وفتري نظرات الفجور ، والا نضب معينها . الا تعلميـن فوائد الادخار ؟ قلت لنفسي: ما المانـع ؟ سالتهـا :

ـ هل مات احـد ؟

ـ قال الراديو : ثلاثة قتلى وعشرة جرحى ..

اغلقت الملف . كان الجو مشحونا بمتفجرات خفية . قلت مـرة اخرى : ما المانـع ؟

قلت لهـا :

ـ غارتان في يوم واحد . هذا كثير .

نظرت دهشة . قالت :

ـ ولكنها غارة واحدة فقط ، متى وقعت الثانية واين !

وضعت يدي فوق يدها المستندة على المكتب قلت :

ـ انها تحدث الان ، هنا ، عيناك تصبان نارا حارقة ، نابالم ، فليرحمني اللـه .

بتهكم مفتاح ، قالت :

ـ ولكن دفاعك قوي فيمـا يبدو ..

قرصتها في حلمة الثدي الايسر ، تأوهت . جرت مسرعة . قالت بصـوت ذائب :

ـ يا مامي .. انت وحش ..

وصلت الى باب الغرفة ، قالت بابتسامة مرحبة :

ـ الدكتورة تنتظرك في العيـادة .

* * *

عرفته بشاربه الفضي . اقدامه المتشققة العارية . على بـاب العيادة كـان يجلس . قام سلم عليّ . قلت :

ـ هل جئت بحكمت ؟

لهث بشدة ، وجهه مرهق . قال بصوت خفيض :

ـ نعم يا افندي .

ـ لماذا لم تات امس ؟

هز كتفه كانه لا يجد اجابة . قال بعد لحظة :

ـ ليتني جئت بها امس . كانت ليلة الله لا يعيدها . صحوت من النوم على صوت ليزا . وهي تصرخ . قالت قومي يا بنت نروح للعدرا. العدرا جاءتني في المنام دلوقتي . وجدتها ترقد فوق البنت المريضة. تكـاد تخنقها . والبنت تصرخ بصوت ضعيف . قامت من فوقها واخذت تقذفهـا بالطوب وكيزان الصفيح ومفشة قديمة ، وكل ما وجدتـه تحت بصرهـا . قمت . امسكت ليزا . قيدتها بالحبل . ضربتهـا بالخيزرانة حتى كلت يداي القيتهـا في ركن بعيد في باحة الدار. لكن حكمت حالتهـا تأخرت جدا . بقيت طول الليـل سهران . خشيت ان يفتكرها الرب دون ان يكـون احـد بجوارها . في الصباح جئت بها.

صمت ، عاد يلهث . دخلت الى العيادة . كانت راقدة مقطوعة الانفاس . السماعـة الباردة تتحرك فوق صدرهـا الطفلي الاملس . ضلوعهـا بارزة وصدرهـا يرتفع وينخفض كموج البحر في يومعاصف. وهذا الفحيح صوت تنفسها . آه خذي الهواء الذي اتنفسه ، قلبـي المعذب بما يحمل ، ولكن كفي عن هذا الزحير المؤلم . الهواء ملء العالم فكيف يعجز قلبك الطفل عن استنشاقه يا وردتي ؟ ومن ذا سوف يبتسم كالشمس كل صباح ؟ جاءت « ضحى » بجهاز رسم القلب .نقلوها على عربة الى حجرة الاشعة . عاد هـو معي الى مكتبي . جلس على المقعـد مترددا .

دخلت الطبيبة بعـد ساعة . ملامحها جامدة . قالت بصوتها النحاسـي :

ـ كيف جئت بهـا ؟

وقف . قال بصوت مرتعش :

ـ راكبة والمسيح الحي . راكبة على عربة كارو ، اكرمنا الوادشلبي بهـا ولم ياخذ سوى خمسة تعريفـة ثمن اكلة الحصان .

قالت مقاطعـة ، وبهدوء :

ـ انت رجل غبي ، جاهل . كيف تعرضهـا لكل هذه الاهتزازات وهي تعاني مـن نكسة خطيرة ، لماذا لم تحضرها في تاكسي ؟

قال بدهشـة :

ـ تاكسي ، يا ريت ياست هانم .. اصل .. اصـ ...

بتاففت قالت :

ـ البنت ماتت ..

لم يقل شيئا ، نظرته فقط غامت ، ابيضت عيناه .. انقلبتا الى رمـاد .. رمـاد .. تمتم :

ـ ماتت .. تاكسي .

كان صوت بكائه يأتي من خارج الحجرة . نهنهات عجوز متتابعة. تاكسي يا عم مسعود تي . ايه . اكس . آي. T . A . X . I راسي خال من كل شيء .. فكرت في ان البكاء قد يكـون مناسبا ونشيج الرجل مزعج . جلست هي خلف المنضدة تكتب شيئا . دخلت ضحى بالاوراق. هاجمتني بنظرة منقضة . لم اكن مستعدا . كانت نظرتي ثابتة فـي الفراغ . لم استطع ان احوّلها ، اعترضت نظراتها طريق عيني المركزة على الفراغ . شبكت نظرتهـا بنظرتي . كنت منومـا او مذهولا . تكلمت عيناها طويلا . ضاع العلم والقاموس الذي يحل طلاسم النظـرات T . A . X . I تي . ايه . .. اكس ، آي . فتحت الزرار الاول من معطفها الابيض . فستان محبوك . ضيق . يقسو على نهديـن مترعين، وضعتهمـا امام بصري .

رفعت الطبيبة رأسهـا من على الاوراق .. قلت :

ـ ما هـذا ؟. اذن الدخول . لا داعي له . يلغى كلية . لا نريـد زيادة في احصائيات الموتى في القسم . اكتبوهـا حالة استقبال فقط. مضت الحكيمة . ذكرت ان التماسيح تملأ نهر النيل برغم كل التكذيبات. وما رايك في قصيدة رثاء من النوع الجزل ؟ وانت يا طبيبتي ، اليـك موضوعا للبحث لن يكلف مجهودا .. « التركيب الكيمائي لدمـوع

التماسيح » . قالت :

ـ من حسن الحظ انني تمكنت من تصوير قلبها قبل الوفـاة، واجريت لهـا رسم قلب وكل التحاليل . اسفت لوفاتها . كان من الممكن ان تزودنا بمعلومـات نادرة .

بعد لحظـة :

ـ الجهل مصيبة كبرى . رجل كالثور . ارجـو ان تزودني بالبحث الاجتمـاعـي .

ساكتب المقال هذا الاسبوع . وساذكر بالطبع مجهودك العلمي.

هززت رأسي . اين السوط . اخلعي ملابسك يا بنت الكلب. ابكي مرة واحدة بدمع حقيقي . ساضربك حتى تطفر الدموع من عينيـــك فاشربها . اشرب ملحها . اذوقه . آنذاك يهدأ القلب وتهمـد كـل الرغبـات الشريرة .

ـ هل تسمعني يا استاذ رافت ؟.

ـ بالتاكيد يا افندم .. ساتهيه اليوم .

* * *

اضاءوا انوار العام الجديد . استقبلت لحظـة الميلاد بيـن حبتي الكريز ، فكيف نبت فيهمـا الشوك ؟ طعم الويسكي غريب . خليط من الليزول والفورمالين . بعد الكاس الثامنة كان مالحا . مركـز الملوحة كدموع التماسيح . قالت حبات الكريز .

ـ ما هذه الافكار الغريبة يا حبيبتي . هل ذقت دموع التماسيح حتى تعرف طعمهـا ؟

هابي نيوير . هابي بيرث داي . في السكر تزعق الاصـوات . « العام القادم تكونين اما يا ضحى ، اريد وريثا لهذه الثروة الطائلة ، والا امتهـا حكومتنـا ولديهـا افكار بلشفية كصديقي رافت «سيسبح في نهـر الكوثر وينسى كل هذا » . « موهوبة انت وايم الله ،تليفزيونية وانت ببطـن امك » « اقتـرح ان ترشح نفسك لمجلس الامة في اقرب فرصة » « موافق » « سيسند الي" حسن الامام دورا في فيلمـــه الجديد » . « مبروك » . « وقد اغني » . ( انا بايع نفسي للجهادية يا جدعان ) . ( يا عدرا الحقينا يا عادره ) . نهـر النيل مليء بالتماسيح. « نشرب كاسا ياضحى في صحـة صديقنا رافت » . « فـي صحتك ». ( الافوتر ) ( حجزت صفحة في الاهرام . ستصدر ملحقا اعلانيـا عـن منظمـة فتح . اريدك ان تكتب لي موضوعا انشائيـا من ذلك النـوع الذي كنت تكتبه لي ايام « السويس الثانوية » . هه « يا عدرا .. احنا غلابه . ( غصبا عني ما كان يا عادرا ) . « خيالك سيرالزم هذه الليلة».

« كاس اخرى من دموع التماسيح » . ( خيالك سيرالزم يا حبيبي .. تعال اقدمك لصديقتي ليلى ، انهـا تظـن ان شارب هير بوي فرند اجمل من شاربك » . « غصبا عني ما كان ياعادره . منديل بأويموغلاوتك ياربنا يسوع » . « اريـد ان اسالك سؤالا يا حبيبتي » ( نعم ) جسدها بارد ولكـن ماسورة البندقية ساخنة . « الصحرا دي غالية قوي يا ابو رياض ، دي كلت لحمه ياما . » ، « لماذا لم تسأل سؤالك » .تذكرت. « هل لديك ياكوثرتي فيش وتشبيه ؟ . . « يعني ايه ؟ » . ( صحفـة الحالة الجنائية السوابق ) . ( اوه .. لا .. لا .. لا . سي ترو .

انت طاهرة الذيل يا حبيبتي . اريني ذلك الذيل الطاهر . «رجعي لي عقلي .. اشفي ابوي .. اشفي حكمت . داحنا غلابه ياعادره .غلابه خالص . غلابه وحياة ربنا يسوع » . « اوه .. لا تكن وقحا . هلتريد ان تعريني في الحفلة ؟ » الويسكي مقشوش بدموع التماسيح . « اوه .. انت سكران » . « لا تريدين ان اعريك في الحفلة فمتى اعريـك ؟ » « تصرف بادب » . ( اريني ذيلك الطاهر ) . « صوتك معانا يا ابونـا غبريال ..» . ( رافت. هل جننت ؟ ) « صوتك معانا يا ابونا غبريال . صوتك معانا يا ابونا رافت . ياابونا رافت يابشلاوي . انت رحتفين؟» « الا تعلميـن ان بنتي ماتت اليوم ؟ » . « انت مجنون » ( كـان اسمها حكمت ؟ ) ( الواحد منا يعيش ويموت ياكل بالكاد عشرة كيلو لحمه، ويمكن اقل دي واكله يجي نص مليون كيلو لحمة ، داغير الـدم ) . « ويشيعونها الان في كنيسة القديس مرقس » . « اتسمعين الاجـراس يا حبيبتي » . ( صوتك معانا يا ابونا رافت ، صوتك معنا ياابونارياض، صوتك معنا داحنا غلابه . والمسيح الحي غلابه ) .

ـ السلام عليكـم .

ـ « وات اذ ذات ؟ What is that ? الى اين تذهب ؟ » .

ـ الكنيسة ـ بنتي ماتت ولا بد ان اكون هناك » .

ـ « رافت »

« الوداع يا نهر الكوثر .. هذه قبعتي .. وهذه هي البايب .مات الخواجا لان ابنته ماتت.اما هذه البصقـة فلكي تسبح فيها التماسيح». « سوفاج . فلاح . وسخ » . « يلعـن ابو اللي خلفك » .

. . . . . .

عندما وصلت الى مزلقان عايده .. كان اول خيط من فجر العام الجديد يولـد هناك عند الافق . تنشقته بعمق .

يناير ١٩٧١ القاهرة

صلاح عيسى


**صدر حديثا :**

**كارل ماركس :** تاريخ حياته ونضاله

**في التنظيم الثوري** ( طبعة ثالثة )

لوكاش ، تروتسكي ، ستالين ، هابل ، بابي ، جيوليتي ، رانكوفيتش واخرين

**حول الحزب اللينيني**

ارنست ماندیل

**فلسفة الثورة العالمية**

فرانز ماريك (فصل أضافي نقدي بقلم منير شفيق)

* * *

**لعبة الحلم والواقع :** دراسة في ادب توفيق الحكيم

جورج طرابيشي

**الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الاول**

د. حسين عطوان

**ثقافتنا بين نعم ولا**

غالي شكري

**مذكرات ثقافة تحتضر**

غالي شكري

* * *

**يوميات فلاح في الغابة الحمراء** ( شعر )

د. خليل احمد خليل

**المناضل** ( رواية )

عزيز السيد جاسم

**منشورات دار الطليعة**

**ص. ب. ١٨١٣ ـ بيروت**